



عاطفة المسكوية

الأيدولوجيا العربية المعاصرة

تعدُّ رائعة ابن خلدون «المقدمة» من الكتب المهمة في فهم التاريخ؛ حيث إنه أغنى المعرفة من خلالها بالكثير من النظريات؛ من بينها: نظرية بناء الدولة وأطوارها. ويستفتح ابن خلدون النظرية بالجزء المتعلق بالظفر بالسلطة ونشوء الدولة وارتقائها، مروراً بمرحلة الازدهار والتطور، ومن ثمَّ الفساد، انتهاءً بسقوط الدولة وانهارها.. ونجدُ كل هذا ينطبق على الحضارات والدول عبر التاريخ؛ مما يجعل نظريته من المسلمات التاريخية، ويكاد يتفق الأغلبية على ذلك. فأقول الحضارات وشروطها يعد من ضمن قسريات النظرية الخلدونية، ولكن ما الذي يجعل الشعوب تستمر بالقتال في سبيل تغيير واقعها؟ إنَّها الطبيعة البشرية التي لا تكل عن البحث عن سبل التطوير والتقدم، حتى وإن أدركت أنها في وضع مُسلم به. لقد فُطر الإنسان على مقاومة الظروف الصعبة والتحديات لاستمرارية العيش، وإلا لما قامت الحضارات وبنيت الأمم من الأساس. وفي سياق محاولة فهم أيدولوجيا الإنسان المكوّن للحضارات العربية المسلمة والمعاصرة تحديداً، يذكر الباحث التونسي محمد الحداد في مقال له بعنوان «القيم الدينية والتنمية وإنسانية الإنسان»، والمنشور بمجلة «التفاهم»، تصنيف المفكر المغربي عبدالله العروي للرموز الثلاث التي تعكس هذه الأيدولوجيات، والتي تُسهم في دعم عناصر التكوين الحضاري.

فالمُرّمز الأول هو الإمام محمد عبده، الذي اختصر فيه المفكر شخصية الشيخ الذي يرتبط بالتبليغ الديني، والرمز الثاني كان الأستاذ لطفي السيد مُمثلاً لشخصية السياسي، والرمز الثالث والأخير هو سلامة موسى الذي يعكس جانب دعاة اتباع القوانين الغربية الجالبة للحدثة.. نناقش رأي الباحث التونسي في كل ما ذكر؛ لمحاولة فهم نظريته تجاه الأيدولوجيا العربية المكونة للحضارة. أولاً: كان الإمام محمد عبده ذا نزعة تجديدية ونهضوية في الدين؛ حيث كان يرفض الجمود الفكري الذي يزعم أصحابه أنه ناتج عن الدين. ولطالما دعا محمد عبده لفهم العلوم المعاصرة وتسخيرها لازدهار الأمم، وإذا ما تمَّ قياس الوقائع التاريخية مُقارنة بما نحن عليه الآن في الحاضر، سنجد أن الدين كان حاضراً في كلتا المرحلتين: مرحلة شروق الحضارة الإسلامية، ومرحلة أفولها التي هي أقرب إلى زماننا الحالي. ما يجب أن يتم أخذه في الحسبان أن القرآن الذي نزل على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل، راعى الظروف التي كانت تمر بها أمة محمد في تلك الفترة، مثله كمثل معجزات باقي الأنبياء؛ فسيدنا موسى مثلاً أحد معجزاته أن يلقي بعصاه فتتحول إلى حية تسعى، المعجزات كانت دائماً تتناسب مع عقول الأمم التي أرسل لها الأنبياء؛ فقوم موسى اهتموا بالسحر فكانت معجزته تخاطب اهتماماتهم وعقولهم، وكذلك معجزة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- القرآن، تخاطب أهل الفصاحة والبلاغة والشعر في تلك الفترة؛ فمن كفر أنكر، ومن آمن فسره استناداً للمعطيات التي كانت بيده في تلك الفترة. إنَّ حتمية التغيير للظروف الزمكانية يتحتم عليها مراعاة الأمر فيما يتعلق بالتفسيرات كذلك؛ فالتجديد مطلب هنا، ناهيك عن كون التفسيرات اجتهادات بشرية آخر الأمر، قد

تصيب وقد تخطئ؛ حيث تُشير كل الدراسات إلى أن الإنسان لا يستطيع الانفصال عن عاطفته، أصله وخلفيته التي تربي عليها، يتحتم على ذلك عدم مقدرته على تفسير النصوص بموضوعية مطلقة. ومن هنا، يُصبح الاجتهاد والتجديد ضرورة؛ بالتالي تصبح هذه الأيدولوجيا تتجه نحو الاتجاه الصحيح في دعم عناصر تكوين الحضارة العربية المعاصرة. ثانياً: ذكر المفكر المغربي عبدالله العروي الرمز الثاني المتمثل في الأستاذ لطفي السيد، ذي الشخصية السياسية، وهو إحدى الشخصيات المساهمة في تكوين الأيدولوجيا العربية. يعدُّ الأستاذ لطفي من الشخصيات التي تأثرت بالفكر النهضوي التجديدي للإمام محمد عبده، وسُمي بـ«أبو الليبرالية المصرية»؛ حيث كان يُنادي بحرية الأفراد ونبذ الاستبداد، وكان يرفض ربط أي كيان بالآخر؛ أي أن لا تربط مصر وتذوب فردانيته في الصورة الجماعية للعالم العربي، كما نادى بأهمية تعليم المرأة أيضاً. كما يعدُّ السيد أنموذجاً لفكر لا يزال يُنادى به حتى يومنا هذا. على الرغم من حدوث الكثير من التطورات، وأن الكثير من الدول والمجتمعات قطعاً شوطاً طويلاً فيما كان ينادي به، إلا أنهم لم يصلوا للمرحلة المراد منهم وصولها. لكن من الجدير بالذكر في هذا السياق أن هذه الأيدولوجيا أصبحت حاضرة بشكل قوي في أذهان الأجيال الناشئة. وأخيراً، ذكر المفكر الشخصية الداعية لمواكبة الحدثة الغربية، وهو «المصلح» سلامة موسى، الذي قادته بعض الظروف في حياته للتوجه إلى أوروبا، وفيها قرأ العديد من المؤلفات وتعرف على شخصيات من أمثال فولتير وكارل ماركس، ثمَّ انتقل إلى إنجلترا وقابل بعض الشخصيات البارزة آنذاك منهم جورج برنارد شو، وتأثر بأفكار تشارلز داروين كذلك.